يتحصّن، في العقل، الولوج الحتميّ في اللّغة وإشكاليّة التّواصل والدّلالة، بمطارحة لا تخرج عن إشكاليّة معياريّة الحقيقة، برؤية يرافع عنها يورغن هابرماس بفلسفة اللّغة، حيث الحقيقة صميمها الإقناع، التّواصل، والإجماع؛ بسؤال تبنّاه الباحث رشيد بوطيب: ما الّذي يمكن أن نقول عنه إنّه صحيح أو خاطيء؟، [1]تأتي المقارنة بين الجمل والمزاعم، لتعني الجملة الواحدة مزاعم متباينة وإمكانيّة التّعبير عن الزّعم الواحد بأكثر من جملة، بمعيار يجعل الثّبات فيصلا، لأنّ الحقيقة لا تخضع للزّمن؛ من وجهة نظري في ما يقتضيه المقام، يستلزم الانصراف عن فلسفة الوعي إلى فلسفة اللّغة، يشرح التّحول إلى عقل عبر/ذاتيّ يعيش داخل المجتمع، في تحرّر من كلّ شطط أنطولوجيّ، بتعبير الباحث رشيد بوطيب؛ تجرّنا عبارة" لتعني الجملة الواحدة مزاعم متباينة" إلى التّاويل، أي أنّ معيار العقل أو الخطاب المنطقيّ، وهو المعنى، ليس بالحقيقة أو الخطأ، ومن ثمّة المعنى، تبعا لزعم غير ثابت، لا يرتبط إلاّ بزمن محدّد. يستوقف شرح التّحول إلى عقل عبر/ذاتيّ سؤال التّواصل، في استدعاء نيكلاس لوهمان، في مقابلة يورغن هابرماس؛ بين الإجماع والاختلاف تنجدل إشكاليّة التّواصل، فهل يقوم على العقل أم على الصّراع؟؛ يختفي الجواب، في فنّ الحب لإريك فروم، بتحليل مصطلح "إدراك الانفصال" بالوعي، يشي بمنحى يرفض فيه لوهمان العقل، ويفترض الصّراعات في محافظتها على مرونة النّظام وقابليّته المستمرّة للتّعلم؛[2]في تحليل النّظام تندرج نظريات الاتّصال في مسألة تشكيله، في جدل الفعل أو التّواصل، بلغة الحركة" لكلّ فعل ردّ فعل"، وبإسقاط المثال، ينجلي التّواصل في صيرورة لا تنحصر في سلسلة الفعل، لا تتحدّد إلاّ بالاختلاف، ما تجعله، أي الصّيرورة، أوسع من مجرد فعل، باعتباره أثرا لتفاعل الاتّصال، المحتوى، والفهم؛ تأخذ علاقة الانعكاس في هذا التفاعل بالفعل، كونه العنصر الأساسيّ، وظيفة إعادة إنتاج النّظام، تسمح بتصوّر التّواصل، بقناعة لوهمان، الوحدة الأوّليّة للتّأمل الذّاتي والوصف الذّاتيّ للأنظمة الاجتماعيّة. يُحضر الطّرح فرضيّات أخر، مثّلها ماكس فيبر بالوجود الاجتماعيّ ذي المعطى المسبق، وتالكوت بارسنز بالبناء التّحليليّ القائم على الفعل؛ هذه الوظيفة تكسّر فرضيّة البنى والمعايير الجاهزة، وثنائيّة الذّات/الموضوع في النّظام/المحيط، بنظرية نيكلاس لوهمان.[3]

في جدليّة العقل والصّراع تنفتح المفاهيم في مقال"اللّغة وإشكاليّة التّواصل والدّلالة"، بصوغ الباحث عزيز السّراج؛ بتساؤلات فلسفة الوعي واللّغة في الموضوعيّة والموضوعاتيّة، بين التّواصليّة والدّلالي؛ وفي محاولة سيميولوجيا التّحليل النّفسيّ، يرتبط التّواصل بما هو أوسع في صلته بالعقل، فإذا كانت مجادلة لوهمان وهابرمس أخذت نقطة الإجماع أو الاختلاف مركزا يدور فيها فعل التّواصل، فإنّ مسألة الحسّ تنعرج إلى مساءلة التّحديد اللّغويّ في اتّجاه دلاليّ، نتج عنه السيميولوجيا، أو علم دراسة أنظمة العلامات، في تجاوز لسانيّ، انحصر بحثه في النظّام اللّغويّ، إلى العلامة الّتي تحتوي اللّغويّ وغير اللّغويّ في خضم العلاقات الاجتماعيّة، هذا القفز له مبرّراته في مسوّغات الوظيفة الّتي تفسّر القدرة التّواصليّة على القدرة النّحويّة، كما فُسّر البحث التّوليديّ على البنيويّة اللّغويّة، وهو السّؤال الّذي تمحور حول العلامة أو الدّلالة في بعدها التّواصليّ، في انفساح لمجال الوسيلة الّتي يستعملها المتّواصل، والّتي لا يمكن نكران الاعتراف بها في التّأثير؛ شاهدي من التدّرج في النّزاع اللّسانيّ، البنيويّ والتّوليديّ، في الوظيفة أو الاستعمال، ينعكس في مسألة مقدرة التّحليل النّفسيّ، بمعنى، هل يتطلّب التّواصل، وبالضّرورة، كنوز التّعقيدات النّحويّة والبلاغيّة...؟، وهل تتمنّع الحاجات العاطفيّة عن الانجلاء بالتّواصل الحسّي...؟؛ ينحرف بنا سؤال التّمنع إلى إشكاليّة الحيلولة دون النّفاذ إلى النّواة المرضيّة بالكلام، ما يضعنا أمام الإشارة بدل اللّسان، فهل الرّغبة تُعجز العلامة بقدر ما تُعجز الكلمة؟...في تحليل تعريف السيميولوجيا لبويسينس قد يكمن الجواب، باعتبارها دراسة طرق التّواصل، أي دراسة الوسائل المستخدمة للتّأثير في الغير والمعترف بها بتلك الصّفة من قبل الشّخص الّذي يتوخى التّأثير.[4]نسير بهذا إلى قضيّة اللّغة في

---

[1] الجابري ، التواصل...نظريات وتطبيقات، 35.

[2] المصدر نفسه، 40.

[3] المصدر نفسه، 41.

[4] المصدر نفسه، 48.

سيميولوجيا الدّلالة، بتعبير السرّاج، حيث ينكشف فيها علم النّفس، البنيويّة،... في دراسة الواقعة، في دلالتها، ولأن اللّاوعي يسبق الوعي، نكون أمام سؤال الوعي باللّاوعي بوسيلة الإشارة، في تلك الوقائع الّتي تقبل الإدراك، بمعنى أنّ الشّرط البلاغيّ للمسؤوليّة، بتسميّة جوديث بتلر، ينتهج العلامة بمفهوم التّحويل في انكشاف الذّات بالبعد المزدوج للفعل الكلامي، ما يزيد من إمكانيّة تبديد العتمة، غير المكتفيّة بالكلام.

سبقت الإشارة إلى أنّ وعي الإنسان في المجتمع الطّبقيّ وعي خاطيء، هذا إذا سلّمنا أنّ الطبقيّة قائمة بشكل أو بآخر، ليكون بذلك، حسب فروم، نشاطا إيديولوجيا؛ يؤدّي بنا التّلازم إلى أنّ اللّغة ضرب من إشارة ينكشف من خلالها هذا النّشاط الاختياريّ، إمّا بصورة واعيّة أو لا واعيّة، تبرز الصّورة اللّاواعيّة في الوسائط الرّمزيّة علامات وأدلّة، حيث التّأثير بها لا يخضع للكلمات الألفاظ، بالضّرورة، فالشّيء تعبير صامت، مثل السّكن، السيّارة، اللّباس...في تلازم منطقيّ. لا يقتصر ولوج اللاّوعي على اللّفظ والإشارة، في تجاوز إلى سؤال أن أعرف نفسي، أن أصل بذاتي إلى حقيقتها، يعني بتعبير مصطفى صفوان الخروج عن نظريّة المعنى وعن علم التّأويل، في الاقتدار على قول الحقيقة وتحمّل المسؤوليّة فيه؛ في هذا المنحى تحتاج ثلاثيّة لاكان الخياليّ، الرّمزيّ، والواقعي في النّظام الرّمزيّ الّذي يسبق وصول الذّات إلى حقيقيتها، إلى تحليل وتركيب، لا يخرج عن المفهوم والنّظام. يأخذنا تهميش مصطفى صفوان في شرح تماهي مرآوي إلى جدليّة، أي تمثّل الطفل لصورته في المرآة ، حيث يكتشف لأوّل مرّة وحدته الجسديّة ما بين 6 و18 شهرا، وينتشي ويهلّل لذلك فرحا أمام هذه الصّورة، الّتي يتعرّف فيها ذاته، كونها وحدة جسديّة/نفسيّة معكوسة في المرآة، ينتشي لأنّ الانعكاس موضع توظيف ليبيديّ، إنّه تماه مع الذّات، تأسيسا لنشأة الأنا، في الآن عينه، في بعد استيلابيّ مبنيّ على الاستيهام حيث الصّورة ليست هي جسده الموضوعيّ؛[5] أرى في التّماهي المرآوي نقطة جوهريّة، حيث المرآة كونها انعكاسا، تشكّل وحدة نفسيّة، إنّه تعرّف خياليّ غير حقيقيّ، وأشدّد على عبارة خياليّ، في تأسيس لنشأة الأنا خارج الموضوعيّة، وهو تأسيس يحملني على إسقاط واقعيّ، في تفكيك وربط لثلاثيّة لاكان؛ يبدو أنّنا مام منطقة حدّية، لا تفترق عن حدّية الوعي واللاّوعي، هي منطقة الموضوعاتيّة أو منطقة مناط الفهم، أين تبقى الذّات معلّقة في اتّجاه الوعي، فما هي شروط تنقيح المناط؟. إذا صحّ الإسقاط، ماهي الشّروط الّتي تسمح بخروج القيح من الجرح العفن إلى السّطح، وهو إشارة قويّة على الشّفاء؟...أعتقد أن بحث الشّروط في عضويّة الفرد، البيولوجيّة والفيزيولوجيّة، هو ذاته في الكيفيّة الّتي تشكّل المنطقة الحدّية في علم الفلك، فماذا نسمّي المنطقة الّتي يلتقي فيها اللّيل والنّهار لحظة الانسلاخ؟، وماهي شروطها؟، ونحن نتّفق على أنّ الأرض، في ذات الزّمن، تدور حول محورها، وعلى الشّمس، في علاقة كونية طبيعيّة. أردت من مثال اللّيل والنّهار انسلاخ الوعي من اللّاوعي في علاقة حتمية أساسها، باللّغة الرّياضيّة الدّقيقة، مفهوم الانعكاس.

بهذا، جاك لاكان يضع ثنائيّة الدّال والمدلول في نظريّة سوسير في موقف إحراج، فالدّال جمع بدلالة التّشابه في صورته السّمعيّة، لكن المدلول، غير ذلك، في صورته الفكريّة؛ ما عنى به جاك لاكان، أنّنا بحاجة إلى إعادة مكانة اللّغة الضّائعة في التّداول كأداة تفكير، يختفي في السّؤال: هل اللّغة هي الأداة غير المناسبة للتعبير عن فكرنا؟، وهل هي نسق يتيح التّواصل دون مشاكل؟، الجواب الأوّل هو مناسبة اللّغة للتّعبير عن الفكر أو بالأحرى المفهوم، والجواب الثّاني، هي ليست نسقا ينفتح به التّواصل دون مشاكل؛ هنا التّعقيد، ذلك أنّ الصّورة الصّوتيّة لا تحيلنا على مفهوم واحد ووحيد. نحن نتواصل، وفي هذا يرجعني استحضار الجهاز النّفسيّ، اللّاوعي والوعي، إلى مقال كتبته بعنوان"التّناظميّة...رهان فعل المعرفة"، عامدت فيه بين خاصّيتيّ القدرة، الامتداديّة والتّطوّريّة، في بيان حتميّة التّناظم؛ فارتباط التّحليل النّفسيّ بالكلام يردّني إلى التّعامد بين محورين يبنيان اللّغة في سياق لسانيّ، التّركيب والاستبدال، في طبيعتين، المجاز والاستعارة؛ فما علاقة الاستعارة والمجاز بالتّحليل النّفسيّ؟...يجيبنا جاك لاكان: "يمكن أن نصف المجاز المرسل فورا باعتباره هربا

[5] مصطفى صفوان، الكلام أو الموت، 148.

أهوج للرّغبة من دالّ إلى دالّ، ومن ثمّ، ستكون المهمّة صعبة، ضمن التّحليل، حيث ينبغي لنا المضيّ في الاتّجاه المعاكس، والصّعود من دالّ إلى دالّ قصد الاقتراب من التّعلقات الأولى للرّغبة. وبالمقابل، بإمكاننا أن نقول عن الاستعارة إنّها تعطي لرغبة الشّخص، بل وحتّى للكثير من رغباته، تعبيرها الصّادق".[6]سؤال اللاّوعي يرتبط، حسب لاكان، بسؤال اللّغة، أو بالأحرى، بتشكّلات اللاّوعي، بمقال جان ميشال بالميي في قراءة"اللّغة...الخيالي والرّمزي"؛ [7]الشّيء الّذي يعني أنّ، باللّغة الرّياضيّة بمفهوم التّطبيق، التحوّل في الجانب الغامض/اللاّوعي يرتبط بالكلام، هذا الّذي يستجلب مفهوم الرّمز، من جهة، والتّمفصل في بنية، من جهة أخرى، حيث يظهر الرّبط علامة على جمع جزئي موضوع مكسور، ومفهوم التّطبيق الّذي يسمح للمدلول بأكثر من دالّ، أي لكلّ سابقة صورة واحدة، لكن من الممكن أن تكون للصّورة أكثر من سابقة؛ تقودنا العبارة المعروفة"تكلّم لأعرفك" في مسار هذه العلاقة، بين اللاّوعي واللّغة، أين مفتاح الأوّل بالثّانيّة، حيث التّلازم يحيلنا إلى مفهوم البنية في اللاّوعي بالبنية اللّغويّة، مما يعني أنّنا أمام خصائص ثلاث: الجملة، التّحويلات، الضّبط الدّاخليّ...في تفكيك اللاّوعي. لعلّنا اقتربنا من سؤال، لا يختلف اثنان في أهميّته، أين نجد اللاّوعي...؟.

---

[6] جاك لاكان، اللّغة...الخياليّ والرّمزيّ(الجزائر، منشورات الاختلاف، 2006)،18.

[7] المصدر نفسه، 63.